● المبحث الأول : انعدام الفقه والعلم عند الأكثرية

في سورة هود يقدم قوم شعيب مبررات لعدم اتباع النبي والاهتداء بهديه على الصورة الآتية: ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾ [هود: ٩١] .

قوم شعيب هنا ينفون عن أنفسهم الفقه والفهم للمواعظ التي قدمها لهم نبيهم، وهم بهذا يمثلون الأكثرية من جانبين؛ الأكثرية في العدد، بحيث يصبح الذين يتظاهرون بسوء الفقه والفهم هم القوم بأكملهم؛ مما سيستدعي من بعد الاستئصال، والأكثرية في انتقاء الفقه لما يقوله لهم نبيهم: ﴿ **مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ** ﴾.

ونلاحظ أن الآية تبني على كل ذلك نتائج، فهم بسبب الأكثريتين تجبروا وتغطرسوا واغتروا، فإذا هم يرون نبيهم ضعيفا لا وزن له في رأيهم، وأن الذي يمنعهم من قتله إنما هو مكانة عشيرته التي هي جزء من هذه القومية الضالة ﴿ **وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾.

والحق أن عبارة قوم شعيب التي وصفت سوء فقههم بالكثرة معبرة فعلا عن الفضاءات المعرفية التي تجهلها، إذ سنلاحظ من خلال أزيد من عشرين نصا قرآنيا أن أكثرية الخلق تجهل حقائق أساسية في التصور السليم للكون والحياة ومن ثم سنجد آيات تنفي عن الأكثرية العلم بقضايا الحق والخير والجمال.

* * *

● المطلب الأول : الفضاءات المعرفية التي يجهلونها :

من الطبيعي أن تكون الفضاءات المعرفية التي يجهلونها كثيرة، وقد وقفنا على الآيات التي تناولت الكثير منها، مثل الحق والوحدانية وسرها ووجوب اعتقادها، وصدق وعد الله، وقدرته المطلقة، وكونه غالبا على أمره، وتصرفه في الأرزاق، والولاء الحق والولاء الباطل، وحقيقة القرآن، والدين القيم، وعالمية الرسالة الإسلامية، والبعث وقيام الساعة، والفتنة العلمية، والعلم، وفتنة الخير

والشر، وكون العذابين الدنيوي والأخروي من عند الله، وذلك ما سنفصله في هذا المطلب بإذن الله

ففي سورة الأنبياء نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، فنجد أن الإعراض عن اتباع النبي ناجم عن كون الأكثرية لا تعلم الحق الذي هو توحيد الله عز وجل، ولا شك إن الإعراض عن الاتباع للرسول سيؤدي إلى دوام الجهل بأسباب النظر الموصل إلى الحقيقة، لأن المسألة مترابطة ترابطا شديدا، فحين يكون أكثرهم معرضا عن النبي ﷺ، فإنهم سيضلون على الجهل بالحقيقة، مما سيزيدهم نفورا على نفور، ومع أن الرسول يبين لهم هنا أنه يحمل معرفة من قبله بحكم كون القرآن مهيمنا على التوراة والإنجيل[1]، ويقدم لهم المعرفة الجديدة متمثلة في القرآن الكريم فإنهم ظلوا معرضين، مما أدى إلى الحكم الشامل والنهائي ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ** ﴾.

ويؤكد ذلك بصورة أخرى جاءت في سورة النمل هي قوله تعالى: ﴿ **أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النمل: ٦١]. فبعد أن تسوق الآية عن طريق الأسئلة – التي تعد أقدر على تحريك الذهن وتنشيط العقل– مجموعة من الحقائق المادية المذهلة كثبات الأرض على حركتها، وتيسير عملية جريان الأنهار في العالم على الرغم من توزع الجبال على الكرة الأرضية بشكل يجعل العقل حائرا في تناسقها مع وظيفة الأنهار من جهة، ووظيفة الجبال في رسوها وكونها حواجز لتنظيم أسباب الحياة من جهة ثانية.

بعد أن تسوق الآية كل تلك الأدلة المادية تعقب بالعبارة السابقة نفسها تقريبا ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فالآية هناك عقبت بما يفيد أن

---

(١) تفسير الجلالين ٤٢٨

الأكثرية لا يعلمون الحق، والآية هنا تفيد أن الأكثرية تجهل حقيقة التوحيد: ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾.

ويبدو أن تحديد دائرة المعرفة البشرية هنا بنفي العلم عن الأكثرية جاء ليبين أن « هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملي الصناعة فيها والتنسيق وتدبر السنة فيها والناموس، لأن التركيز في السورة كلها على العلم »[1].

ونتيجة لذلك يتجلى جهل الإنسان بحقيقة الدين القيم، وهو ما تعرضه آيتان إحداهما من سورة يوسف وهي قوله تعالى ﴿ يَا صَاحِبِيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩ – ٤٠] أي لا يعلمون الدين القيم.

وثانيهما من سورة الروم وهي قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠].

والسورتان مكيتان موضوعهما الأساسي هو العقيدة، ومرتكز الآيتين هو بيان أساس الدين القيم وهو التوحيد الذي يجهله أكثر الناس، وقد أُمر النبي ﷺ في الآية الثانية ليقيم وجهه لله وحده، أي يخلص له؛ لأنه بذلك سيلزم الفطرة التي فطر الله عليها الناس وجبلهم على حقيقتها، ومن ثم فهي لا تتبدل ولا تتغير إلا نتيجة انحراف الإنسان إذ ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ إلا إذا مال الإنسان للانحراف فإنه سيكوِّن عندئذ لنفسه عادات وتقاليد ستصير كالسنن الجبلية في القدرة على دفع الإنسان للجمود على الخطأ، ولكن ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ « فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواضح المستقيم »[2].

---

(١) في ظلال القرآن : ١٢ / ١٩٩١

(٢) في ظلال القرآن : ٢١ / ٢٧٦٧

وكون الأكثرية لا يعلمون يجعلهم بعيدين عن الدين القيم « فالذي لا يعلم شيئا لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه فإذا وجدنا أناسا لا يعلمون حقيقة الدين لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين ولم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام، ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداء، فاعتقاد شيء فرع عن العلم به، وهذا منطق العقل والواقع بل منطق البداهة »[1].

والدين القيم الذي لا يعلمه أكثر الناس هو الدين الحق الذي يعني: « الدينونة لله وحده والخضوع له وحده واتباع أمره وحده سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية أو تعلق بتوجيه أخلاقي أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه ولم يجعلها لأحد من خلقه »[2].

إن آيتي يوسف والروم قد بينتا أن الأكثرية لا تعلم حقيقة الدين القيم، ومن ثم فقد وقعت فيما وقعت فيه من خلط معرفي في الحقائق الأساسية، التي تعد من الضرورة بمكان، لاستقامة أحوال البشرية في الدنيا، وحسن مصيرها في الآخرة.

وهناك آيات أخرى تكشف عن انتفاء العلم عن الأكثرية في جانب معرفي آخر هو وجوب التوحيد وسر ذلك .

ويكشف عن هذه الحقيقة الثانية آيتان تشتركان في الصياغة إحداهما من سورة لقمان والثانية من سورة الزمر وهما سورتان مكيتان.

أما الأولى فتعنى بوجوب التوحيد الذي قامت حجته على الناس بالتأمل في الخلق قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [لقمان :٢٥].

وأما الثانية فتعرض سر التوحيد الذي يجعل حياة الإنسان منطقية بعيدة

---

(١) نفسه : ١٢/١٩٩١

(٢) نفسه

عن التردد: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩].

والآيتان من حيث الصياغة يرتبط فيهما انتفاء العلم على الأكثرية بالحمد والشكر لله،وحذف فيهما المفعول به، وهذا يحتاج إلى وقفة بيان، والظاهر أن الحمد يجري على الحال المبينة قبل، وهي في الآية الأولى اهتداء الناس إلى أن خالق السماوات والأرض هو الله وحده، وفي الثانية اهتداؤهم إلى عدم مساواة تعامل الإنسان مع سيد واحد وتعامله مع سيدين، فعبارة الحمد جاءت بعد الاهتداء إلى الحق إذ به تقوم الحجة؛ لتقوم بعد ذلك العبارة الموالية للتعليل فتكون عندئذ عبارة: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ففي الآيتين إضراب انتقالي أسند فيه عدم العلم للأكثرية، لأن أكثرهم عامة يتبعون زعماءهم الذين سنوا لهم الإشراك وشرائعه، بحثا عن الانتفاع بالجاه والثناء الكاذب، بحيث غشي ذلك على عملهم [١]. قال ابن كثير: «الحمد لله على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا يشركون بالله »[٢]، وقال القرطبي : « قل الحمد لله أي على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره، بل أكثرهم لا يعلمون ، أي لا ينظرون ولا يتدبرون » [٣]، وقال ابن الزبير الغرناطي « حصل مما أعقبت به الآيتان ما في قوة أن لو قيل : كيف يعرفون مع بيان الأمر ؟ ما ذلك إلا لمنعهم عن العلم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ... فكفرهم بعد ذلك اتباع للهوى وضلال على علم» [٤].

ومعنى كل ذلك أن الحمد لله جاء ليعقب على الحجة التي قامت على الإنسان من جراء الاعتراف بوحدانية الله في الخلق في الآية الأولى، وضرورة

---

(١) التحرير والتنوير :٢٣/٤٠٣

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٤/٥٢

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن العظيم : ٤/٥٢

(٤) ابن الزبير الغرناطي : ملاك التأويل : ص ٩٢٢-٩٢٣ تحقيق سعيد الفلاح دار الغرب الإسلامي د ١/١٩٨٣

وحدانيته لصلاح حياة الناس في الآية الثانية، وجاء التعقيب عن طريق الإضراب بقوله : ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ لينفي عنهم العلم فيتحقق النقيض الذي هو الجهل، وهو الذي لم يحصل بسلب وسائله من سمع وبصر وعقل، ولكن حصل بسبب تعطيلهم لتلك الوسائل المؤدية للعلم بما اقترفوه من ذنوب نجمت عن اتباع الهوى مما أدى إلى كفرهم، وهكذا يتحمل الإنسان مسؤوليته عن كفره كاملة إذ قامت عليه الحجة من جهتين؛ من جهة الاعتراف والاهتداء عند السؤال عن الخالق، ومن جهة تسببه في تضليل نفسه بتعطيل وسائل العلم التي غطى عليها بالهوى، وقد بينا ذلك في حديثنا عن الران في كتاب : التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا .

والقرآن يكشف عن جانب عقدي آخر انتفى فيه العلم على الأكثرية هو كون الله غالبا على أمره، وأن قدرته مطلقة في كل شيء ولا يخفى ما لهذا النوع من الجهل من تأثير على المعرفة الناضجة بالله سبحانه وتعالى .

والآيات التي تعرض هذا الجانب ثلاث هي :

١ ـ ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٢١] .

٢ ـ ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنعام : ٣٧] .

٣ ـ ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [غافر: ٥٧] .

هذه الآيات الثلاث تعرض صور الجهل التي تنفي العلم عن الأكثرية العظمى من الخلق، وهي آيات مكية موضوعها الجوهري هو إصلاح العقيدة، فهي هنا تعني بانتفاء العلم الذي به وحده تستقيم العقيدة في تصور الإنسان، وإلا ظلت صورة مسائل العقيدة متذبذبة في التصورات لا تعرف نضجا ولا يعرف القلب بسبب ذلك استقرارا .

ففي سورة يوسف تعرض الآية صورة من صور جهل أكثرية الناس وهي انتفاء علمهم بحقيقة كون الله غالبا على أمره لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك التمكين ليوسف في الأرض ، وتعليمه تأويل الأحاديث والرؤى الصادقة، التي قد يكون الفرق الزمني بينها وبين تحققها ربع قرن أو يزيد كما في رؤية الشمس والقمر والكواكب ساجدة له، وكما في رؤية العزيز سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وما إلى ذلك مما هو داخل في الغيب الزماني الذي يطلع الله القادر عباده الصالحين عليه، يقول قطب: « يعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة الله غالبة لا تقف في طريقها قوة، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون »[1].

وآية سورة الأنعام تقدم صورة أخرى من صور انتفاء العلم على الأكثرية، يتجلى في القدرة المطلقة التي يمكنها أن تنزل آية ذات طابع مادي خارقة للعادة، تظل أعناقهم خاضعة لها، ويتجلى كذلك في انتفاء علمهم بتبعات تلك الآية المادية، إذ لو نزلت لكان من تبعاتها ما كان بالنسبة للناقة والعصى والمائدة وغيرها مما كان تنزولها بلاء عليهم لوجوب هلاكهم إن جحدوها [2]. وقيل إنهم لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، وكان ذلك تعنتا منهم بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله مما فيه من الوصف وعلم الغيوب[3] .

ويفسر انتفاء العلم هنا آيات سبقت آية سورة الأنعام أحسن تفسير، إذ هي من باب تفسير القرآن بالقرآن، فقد سُبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ**

---

(١) في ظلال القرآن ١٢ /١٩٧٨-١٩٧٩

(٢) تفسير الجلالين : ١٧٤

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٣٧

﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

[الأنعام: ٣٥ – ٣٦]

فالمشكلة التي يعاني منها هؤلاء القوم ليست هي ضعف الحجة والبرهان، إنما هي مرض نفسي منع الأكثرية من الاستجابة التي هي سمة الذين يسمعون، أما من هم في درجة الموتى فهؤلاء لا يمكنهم ذلك لأن «الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان : فريق حي، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية عاملة مفتوحة، وهؤلاء يستجيبون للهدى فهو من القوة والوضوح والإصلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه فتستجيب له ،... وفريق ميت معطل الفطرة لا يسمع ولا يستقبل ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب، ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله فدليله كامن فيه، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه فاستجابت إليه حتما، إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي، وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ولا مجال معهم للبرهان إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم، وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا وبقوا أمواتا بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة»[1].

وهكذا يتجلى لنا أن الأكثرية لا تعلم حق العلم حكمة الله في عدم الاستجابة لمطالبهم المتعلقة بالحجة المادية [2] وسبب ذلك هو العناد من جهة، وتعطل وسائل الاستجابة عندهم من جهة ثانية؛ لأسباب كثيرة منها حب الجاه والغيرة والحرص على المصالح التي كانوا يمتحنون الرسول بها حينما عرض عليهم الدين الجديد، فقد روي أن عتبة بن ربيعة كان سيدا في قومه قال لهم يوما يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل

(١) في ظلال القرآن : ٧/١٠٧٩

(٢) نفسه : ١٠٨٠

بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، ثم مضى إلى الرسول ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن كنت تريد مالاً جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا [1] فهذه العروض الثلاثة: المال، والسيادة، والملك، تترجم الأسباب التي تتحكم في سلوكهم، فهم معطلو القلوب والعقول بهذه العلل التي لا يعلمون حقيقتها ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

تلك هي القضية الثانية التي كان أكثر الناس لا يعلمونها ، أما القضية الثالثة فهي قضية القدرة على إعادة الخلق بعد الموت وهي التي تقدمها آية مكية أخرى من سورة غافر: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [غافر : ٥٧]، يفسر هذه الآية نظيرتها في قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

فالإشارة إلى القدرة في هذه الآية واضحة الدلالة على هذه الحقيقة التي لا يعلمها كثير من الناس، الذين لا يستخدمون عقولهم في إدراك خطاب الله، ولا في تدبير الكون من حولهم ولا في أنفسهم، إنهم لا يعرفون أن من قدر على خلق السماوات والأرض وهي أكبر من خلق الإنسان قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، فهم لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها فينكرون المعاد استبعادا وكفرا وعنادا [2]، قال الزمخشري : « حُجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بأنها خلق عظيم لا يقدر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم »[3] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٣

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٥٨

(٣) الكشاف : ٣ / ٤٣٣

بهذا تجتمع لدينا ثلاث قضايا لا يعلمها الأكثرية هي كون الله غالبا على أمره وأن قدرته مطلقة في إنزال الآيات، كما هي مطلقة في إعادة الخلق كما بدأه أول مرة، وقد بلغ بهم ذلك مبلغا جعلهم يقسمون باستحالة ذلك كما بينت آية من سورة النحل ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٣٨] ، فهم ما أقسموا بأغلظ الإيمان إلا بسبب انتفاء علمهم، فأكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور (١).

ثم هناك قضية معرفية أخرى رابعة تبين النصوص القرآنية جهل أكثر الناس لحقيقتها هي التصرف الإلهي المطلق في الأرزاق؛ فقد جاء ذلك في سورة سبأ والنحل والقصص.

ففي سورة سبأ قال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾

[سبأ: ٣٤ - ٣٦]

وفي سورة القصص قال: ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص : ٥٧] وفي سورة النحل قال : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٧٥] والآيات من سور ثلاث مكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى التي يأتي على رأسها الربوبية التي هي المصدر المطلق للرزق، يبسطه كما يشاء امتحانا، ويضيق على من يشاء كما يشاء ابتلاء، تبعا للحكمة التي لا يعلمها إلا هو، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

---

(١) صفوة التفاسير : ٢/١٢٧

هذه الحقيقة، لأنهم لا يتأملون [1]، مما جعلهم يتوجهون في عبادتهم وفي سلوكهم وجهة غير سوية ضلوا بها وأضلوا كثيرا.

ففي الآية الأولى تعقيب على أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، باعتبار عموم من يشاء من كونه صالحا أو طالحا، ومن انتفاء علمهم بذلك أنهم توهموا بسط الرزق علامة على القرب عند الله، وضده علامة على ضد ذلك» [2] «فبسط الرزق وتقتيره شأن آخر من تصرفات الله المنوطة بما قدره في نظام هذا العالم، أي فلا ملازمة بينه وبين الرشد والغي والهدى والضلال، ولو تأملتم أسباب الرزق لرأيتموها لا تلاقي أسباب الغي والاهتداء، فربما وسع الله الرزق على العاصي وضيقه على المطيع، وربما عكس فلا يغرنكم هذا وذاك فإنكم لا تعلمون، وهذا ما جعل قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مصيبا المحز، فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعونها في مواضعها زينها وشينها[3].

وفي الآية الثانية نجد التعقيب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلقا بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ والمعنى أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده [4].

وفي الآية الثالثة تأتي العبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لتبين أن الحجة قامت عليهم بهذا الدليل الحسي الذي يبين لهم عدم استواء حال من ينفق كما يشاء بالمطلق وحال من لا يملك حتى نفسه إذ هو عبد مملوك لا يقدر على شيء، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يعلمون حدود الحقيقة الكبرى وهي أن الله هو المالك الحق الذي ينفق كيف يشاء ويتصرف في ملكه بالطريقة التي يشاء،

---

(١) الجلالين: ٥٧١ وانظر الجامع لأحكام القرآن ٤/٣٠٥

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢/١١٤ (٣) نفسه: ٣/٢

(٤) الكشاف: ٣/١٨٦

قال القرطبي في معنى قوله : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله، لأنه المنعم الخالق ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ** ﴾ أي أكثر المشركين ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن الحمد لي، وجميع النعمة في، وذكر الأكثر وهو يريد الجميع فهو خاص أريد به التعميم، وقيل أي بل أكثر الخلق لا يعلمون وذلك أن أكثرهم المشركون (١) .

ثم هناك حقائق أخرى عقدية نفى الله عن الأكثرية العلم بها، منها الوعود الربانية، ومنها القدر وملابسته بالتطير.

ففي سورة الروم نقرأ بخصوص الوعد الرباني قوله تعالى : ﴿ **الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم : ١-٧] .

فالآيات تحدد هنا مسألة الوعود الربانية، وتبين صدق وعد الله الذي لا يتأخر لأن الأمر له من قبل ومن بعد وتكشف عن جهل الأكثرية بهذه الحقيقة العقدية كما تكشف عن سبب هذا الجهل وهو الحدود الضيقة للعلم البشري، إذ هي مبنية على الظاهر من الأمور، في حين أن مسائل العلم ليست مبنية كلها على الظاهر حتى تقبل تفسير المنهج الحسي الظاهري وحده، فهناك مسائل علمية تتطلب منهجا باطنيا يقوم على الوحي أو العلم اللدني، وهو مجال من العلم لا يحصل للإنسان إلا بعد طول تعهد الوحي قرآنا وسنة بالمدارسة والتمرن المستمر على دلالات العبارات التي ينطق بها الرسل عليهم السلام أو العلماء الذين التبست نفوسهم بالوحي لكثرة التعامل معه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٠/١٤٨

ولأهمية ذلك الفرق بين المنهج الحسي والمنهج النقلي استبدل قوله تعالى: ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ بقوله ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ ﴾ فأصحاب المنهج الحسي نفى عنهم العلم بتلك القضية العقدية (الوعد الحق) لشدة خفائها على الحس، ثم أثبت لهم علم بعض الظاهر ليبين أن هذا العلم الظاهر لا يغني عن العلم الباطن في مجال البواطن، فهو من هذه الناحية كلا علم، يقول الزمخشري: «قوله يعلمون» بدل من قوله لا يعلمون، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا ... وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة الظواهر»[1].

فالحقيقة العقدية التي نفى الله عن الأكثرية العلم بها هنا هي حقيقة الوعود الإلهية، إذ هي لا تعرف التخلف أبدا لأنها مرتبطة بإرادة الله المطلقة، ولبيان ذلك سيقت المسألة التاريخية التي حدثت في عهد الرسول ﷺ، واختلف تصوران متناقضان بشأن تفسيرها، تصور أبي بكر الصديق الذي ينطلق من الخلفية المعرفية لأسرار تدبير مسائل الحياة الدنيا كلها ظاهرها وباطنها، وتصور بعض مشركي قريش الذي لا يزال ينطلق من خلفية معرفية حسية تقف في تفسير الظواهر التاريخية عند الأسباب الظاهرة وحدها.

ومن الطبيعي أن يؤدي أحد المنهجين إلى نتائج مختلفة عن النتائج التي يؤدي إليها منهج آخر، وهكذا راهن أبو بكر الصديق على صدق وعد الله بنصر الروم بعد بضع سنين كما ذكرت الآية، وراهنت قريش على بطلان هذا الزعم قياسا على الحدث التاريخي السابق الذي يشهد الظاهر بغلبة فارس.

إن الذي نفى الله العلم به على الأكثرية هو منهج أبي بكر الصديق الذي اعتمد على الإيمان الذي يعطي الثقة المطلقة لصاحبه بأن وعد الله حق ﴿ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) الكشاف ٣/٢١٥

﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ لقد استنتج أبو بكر من الآية أن «ذلك النصر وعد من الله فلا بد من تحققه في واقع الحياة فوعده صادر عن إرادته الطليقة وعن حكمته العميقة وهو قادر على تحقيقه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا يكون في الكون إلا ما يشاء، وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذي لا يتغير» [1] في حين استنتج أهل الظاهر من قريش أن الغلبة ستكون لفارس بناء على المعطيات الحسية التي قدمتها التجربة السابقة في الصراع بين فارس والروم، وسبب اعتماد هذا المنهج هو أنهم لا يعلمون المعطيات الخفية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولو بدا في الظاهر أنهم علماء وأنهم يعرفون الكثير، ذلك أن علمهم سطحي يتعلق بظواهر الحياة ولا يتعمق سننها الثابتة وقوانينها الأصلية ولا يدرك نواميسها الكبرى وارتباطاتها الوثيقة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه، وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير، مهما بدا للناس واسعا شاملا تستغرق جهودهم بعضه ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة، والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل، تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه، والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ولكنه لا يدرك حكمته ولا يعيش بها ومعها، وأكثر الناس كذلك، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود، والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس، ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية[2].

ثم إن هذا الوعد الحق الذي نفى الله عن الأكثرية العلم به يتعلق – مع ذلك – بما يمكن اعتماد الدراسات المستقبلية في التكهن بحدوثه، اعتمادا على المناهج

---

(١) في ظلال القرآن ٢١ /٢٧٥٨

(٢) في ظلال القرآن: ٢١ /٢٧٥٨-٢٧٥٩

الحسية القائمة على مراقبة السنن للوقوف على حقيقة الأسباب التي تقوم عليها، ومن ثم أمكن في بعض الأحيان التنبؤ بوقوع بعض النتائج وفق بعض المقدمات، وهذا ما يسمى بالسنن المادية الاجتماعية والطبيعية، ولكن هناك وعودا أخرى لا يمكن معرفة حقائقها إلا بالوحي، وهي التي ينفي الله سبحانه وتعالى علم الأكثرية العلم بها كما يتجلى من قوله : ﴿ **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [يونس : ٥٣ – ٥٦] .

الأكثرية كما تبين هذه الآية تجهل وعد الله بأمر البعث بعد الموت، « فوعد الله بالبعث والجزاء حق ثابت ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك » [١]، لا يعلمونه لأنه معرفة عقدية لا تحصل بالحواس، وإنما تحصل بالتأمل العميق في آيات الكون أو بالتدبر الأمثل لآيات الوحي، وأكثر الناس بعيدون عن وسيلتي التحصيل هاتين، غافلون عنهما بسبب انهماكهم في شؤون الحياة الدنيا التي تلبي الحاجات المادية والغريزية، غافلون بذلك عما يناسب حاجاتهم الروحية المتعلقة بشؤون العالم الآخر، ولهذا ذكرت الآية هذه الأكثرية بمصدر الحياة والموت ﴿ **هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ لكي تبني على ذلك حقيقة البعث والرجوع تنبيها لمن له قلب حاضر، وعقل غير عاطل.

وهاهنا وعد ثالث ينفي الله على أكثر الناس العلم بحقيقته هو الوعد المتعلق بإرجاع الحقوق لأصحابها المؤمنين الصابرين، والمثال الذي تقدمه الآية القرآنية نستمده من سورة القصص وهو قوله تعالى بشأن قصة موسى عليه السلام : ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص : ١٣] .

---

(١) تفسير الجلالين : ٢٨٢

فالأكثرية المطلقة من الناس لم يكونوا يعلمون بهذا الوعد الذي يقتضي أن ترد الأمانة لصاحبها، ولا بأن هذه المرأة التي ترضعه هي أمه، ولا بأن هذه البنت التي كانت تتبع آثاره وتدلهم على المرضعة هي أخته ولا بأن الذي يربيه فرعون هو عدوه المستقبلي الذي سيهزمه[1]، لقد كانوا يجهلون كل تلك الحقائق التي بينها قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ [القصص: ٧ – ٨].

إن كل ذلك يبين أن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع[2] بالنسبة لمثل هذه الظواهر التي يصعب على المنهج الحسي، و حتى على المنهج العقلي تفسيرها، لخفاء معطياتها على الآليات المعتمدة في هذين المنهجين، ويبقى المنهج الوحيد الذي يقدم الحقيقة المتعلقة بهذا الوعد هو الوحي الذي أوحاه الله لأم موسى.

لقد كانت كل تلك الأحداث التي جرت برعاية فرعون وتحت بصره كيدا له، ولكن أنى له أن يعلم، وكل المعطيات الحسية التي تناسب منهجه في تقييم الأحداث وتفسيرها لا تكشف عن أي شيء من أحداث المستقبل، ولهذا عبر القرآن عن هذا الجهل بقوله: ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص: ٩]، إنهم لم يكونوا يشعرون حتى مجرد الشعور أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه[3].

ذلك سبب انتفاء العلم على الأكثرية بخصوص طبيعة الوعد الإلهي وصدقه، أما سبب انتفاء العلم في قضية القدر وملابسته بالتطير عند أكثر الذين

---

(١) تفسير الجلالين ص: ٥١٢.

(٢) صفوة التفاسير: ٢/٤٢٧

(٣) صفوة التفاسير: ٢/٤٢٦ والجامع لأحكام القرآن: ١٣/٢٥٣

لا يعلمون فتفسره الآيات التالية: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١]، ومعنى الآية أن الله امتحن آل فرعون وابتلاهم بالقحط والحاجة لكي يتعظوا فيحصل لهم الإيمان، لكنهم لسوء علمهم ولفساد تصوراتهم، ولجهلهم بعلم الغيب ويد الله في ذلك، كانوا يفسرون تلك الظواهر الطبيعية تفسيرا خرافيا، فإذا ابتلاهم الله بالخصب قالوا نحن أهل لذلك ففتنوا ولم يشكروا الله على تلك النعمة، وهذا يدخل في كفر النعمة كما سبق، وإن ابتلاهم بالجدب نسبوا ذلك لسيدنا موسى عليه السلام تطيرا وتشاؤما به وبدعوته، وهم بكل ذلك التفسير الخاطئ للظواهر الطبيعية لا يستخدمون حتى علم الظواهر الذي يتحكم في السنن، وإنما يعتمدون التفسير الخرافي الذي لا يسنده أي دليل حسي أو عقلي أو نقلي، فلم يستطيعوا - نتيجة لذلك - أن يتوصلوا إلى الحقيقة وهي أن ابتلاءهم من عند الله ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي أنهم لا يعلمون أن ما يصيبهم إنما هو قدر من عند الله وابتلاء منه لعلهم يرجعون إلى رشدهم.

ولكن نتيجة انتفاء العلم بالأسباب الحقيقية كانت أنهم قد عدوا ذلك سحرا على الرغم من تكراره مرارا، وبصور مختلفة؛ مجاعة، وطوفان، وجراد، وقمل، وضفادع، ودم، فكل ذلك لم ينفع وظلوا على كفرهم وعيهم بسبب جهلهم واستكبارهم، وهذا ما يبينه قوله تعالى تعقيبا وتفسيرا لسبب كون ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣].

وحين اشتد على آل فرعون الابتلاء تضرعوا لموسى عليه السلام ليدعو لهم

الله فيفرج عنهم الكرب، ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ وذلك يعني وجود صحوة، وعودة وعي، وحصول علم بالمنهج النقلي الذي يصلح لتفسير مثل هذه الظواهر وفهما لسننها، ولكن هذه الصحوة كانت مؤقتة وغير ناضجة بسبب استحكام الجهل فيهم لدرجة أنهم ينكثون ذلك العهد ويصرون على كفرهم [١] كما تبين الآية: ﴿ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

وعلى هذا تكون الحجة قد قامت عليهم واستحقوا الاستئصال لأنهم لم ينتفعوا بتلك الصحوة الناجمة عن تلك الابتلاءات المتكررة ﴿ **فَانتَقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٦] وهذه الآية الأخيرة في القصة تبين أسباب الاستئصال وتحصرها في سببين؛ أحدهما التكذيب بتلك الآيات المادية على ظهورها ووضوحها، وثانيهما انتفاء العلم الذي عبر عنه هنا بالغفلة التي هي سببه ﴿ **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ وقد فسرت الغفلة بانتفاء التدبر [٢] وما دامت الصحوة قد تمت، ومعنى الصحوة انكشاف الغطاء على القلب ليستيقظ ويعلم، ثم حدث انكماش في القلب، ونكوص في الإسلام فقد أدى ذلك إلى الاستئصال، وقد عبر القرآن عنه بالغفلة، وفسرت بانتفاء التدبر في الآيات، فإن هذه الصحوة ظاهرة نفسية تتطلب تفسيرا علميا.

وقد وقفنا على جانب من هذا التفسير عند ابن القيم إذ يرى أنه «إذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والهدى والذل والسمت مشابهة لهذه الأصول

---

(١) تفسير الجلالين: ٢٢٠

(٢) تفسير الجلالين: ٢٢٠

مناسبة لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذ كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ومثلها الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا انقطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، وهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعودة بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر وإلا أوشكت أن تيبس»[1].

ومعنى ذلك أن تلك الصحوة ليست ظاهرة صادقة، فقد كانت تمويها وخداعا لأن القائم في القلب إنما هو الأفكار الخبيثة، ولكي تحدث صحوة حقيقية مستمرة ينبغي تغيير ما بالنفس جذريا ليحصل العلم المبني على أسس سليمة فيؤدي إلى تفسير صحيح للظواهر يحقق للبشرية النفع والخير، وإلا ظل تفسير أكثر الناس للظواهر الطبيعية تفسيرا خرافيا يعد تطيرا حينا، وعادة في الطبيعة أخرى كما يفسر اليوم الزلزال بأنه كارثة طبيعية سببها وقوع مدينة ما على خط مناطق الزلازل .

ويبدو لي أن انتفاء علم الناس بهذه الظواهر الطبيعية لا يختلف عن انتفاء علم الأكثرية بحقيقة زلزال قيام الساعة، كما تبين الآية التالية : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. هذه الآية من سورة الأعراف، وهي سورة مكية، مما يجعل الآية تصب في سياق هذه الفترة التي لم يحصل فيها العلم بالحقائق الغيبية بصفة ناضجة وصحيحة، ولهذا نفى الله على أكثر الناس العلم بحقيقة عقدية هي كون علم الغيب ملك لله وحده يطلع رسله على ما يشاء منه، ويخفي عنهم ما يشاء، ومن ذلك حقيقة قيام الساعة التي

---

(١) ابن القيم الجوزية : الأمثال في القرآن الكريم ص ٢٣٣-٢٣٤ دار المعرفة - بيروت -

استأثر الله بعلمها وأشار إلى بعض ملابساتها، مبينا أنها: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾، فهي من جهة وقت الوقوع لا تأتي إلا بغتة وفجأة، بمعنى أن معرفة مقدماتها غير ممكن، ومن ناحية ثانية فإن حقيقتها تكمن في السماوات والأرض لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب[1].

وتبقى المشكلة الرئيسية التي هي سياق حديثنا في المسألة التي نفى الله علمهم بها بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فهاهنا حصر العلم بالساعة ليجعله مما استأثر الله به وحده، ثم يأتي نفي العلم على أكثر الناس، مما يطرح تساؤلا بخصوص الفرق بين العلمين، ما لا يعلمه إلا الله، وما لا يعلمه الأكثرية، ولكن هناك أقلية تعلمه.

إن القرطبي يرى أن «أحد العلمين لوقوعها، والآخر لكنهها»[2]، وهذا يتعلق كما رأينا بالعبارة التي بينت أن الساعة ثقلت في السماوات والأرض، وأن وقت وقوعها سيأتي فجأة، وهذا جانب مما لا يعلمه أكثر الناس المفتقرون إلى الوحي الذي هو مصدر العلم اليقيني، ثم هناك ما نفى الله علمه على الأكثرية وهو جانب آخر، إنه كون الساعة غيبا لا يعلمها إلا الله، ومن ثم يصبح السؤال عن وقت حدوثها جهلا، والأفضل منه «أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة فلا ينفع معها الحذر .. ما لم يأخذوا حذرهم قبلها .. وما يدري أحد متى تجيء»[3].

والحق أن الإنسان في كثير من الأحيان يصرف اهتمامه عما هو في مستوى عقله وفي حدود منهجه إلى ما هو أكثر غموضا، ومن ذلك أن يصرف عقله على التفكير في نفسه وعقله وفي منهجه وفي طريقة الأحكام التي يصدرها بخصوص الأشياء والأفكار من حوله إلى أمر الغيب الذي استأثر به الله.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧ – ٣٣٥

(٢) نفسه: ص ٧/٣٣٦

(٣) في ظلال القرآن: ٩/١٤٠٩

ومثال ذلك هاهنا آية تكشف عن انتفاء العلم بحقيقة القرآن وفائدة النسخ على الأكثرية، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ١٠١]، فالأكثرية لا تعلم حقيقة القرآن وطريقته في معالجة قضايا المجتمعات البشرية مما يفضي بها إلى إصدار أحكام غير علمية على القضايا الخطيرة في حياتهم الاجتماعية ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ** ﴾ هذا حكم لا يصدر إلا عن جاهل بمنهج الله لأي إصلاح للمجتمعات، إن الأكثرية «لايدركون وظيفة هذا الكتاب، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي ... وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع، فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفذت أغراضها ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا هو فالشأن له ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطي للمريض منه جرعات حتى يشفى ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية، إن المشركين (وهم الأكثرية) لا يدركون شيئا من هذا كله، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبا قط ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ كل ذلك[1].

والحق أن ما تجهله الأكثرية بخصوص الحقائق القرآنية لم يكن جهلا بهذا الجانب فقط وإنما يتعداه إلى جانب آخر مهم وهو كون هذه الرسالة جاءت للناس كافة، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ: ٢٨] فالأكثرية لا تعلم كون الرسالة القرآنية عالمية، وكون الرسول ﷺ بشيرا ونذيرا لكافة الناس، بعيدا عن النظرة القومية التي تميز بها تصور بني إسرائيل فحصروا دين الله في قومية ضيقة جعلت أهل

---

(١) في ظلال القرآن ١٤/ ٢١٩٤

هذا الدين يتناقصون بتناقص نسبة قوميتهم إلى غيرها من القوميات حتى صار أتباع سيدنا موسى عليه السلام يمثلون الأقلية القليلة على الرغم من العمق التاريخي لهذه الرسالة، وهذا ما يفسر قول «عبد الله بن أبي بن سلول للنبي ﷺ حين جاء مجلسا هو فيه وقرأ عليهم القرآن : لا أحسن مما تقول أيها المرء ولكن اقعد في رحلك فمن جاء فاقرأ عليه»[1].

فالأكثرية لا تعلم أن هذه الرسالة للناس كافة «وقدم الحال (كافة) على صاحبه للاهتمام بها لأنها تجمع الذين كفروا برسالته كلهم»[2]، وأفاد تركيب الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ عموم الرسالة المحمدية على الناس كافة دون تخصيص أهل مكة، والسورة مكية، أو القومية العربية والقرآن عربي اللسان، أو من يقدمون على الرسول ﷺ من المناطق المجاورة كالفرس والروم والحبشة طلبا للإرشاد والإيمان[3].

والحق أن عالمية الرسالة المحمدية قد وقعت فعلا «فقد ظهر دين الحق لا في الجزيرة وحدها بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان، ظهر في إمبراطورية كسري كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزيرة الهند الشرقية أندونيسيا، وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع، وما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها»[4].

وهذا مصداق كون الرسالة المحمدية كانت للناس كافة، وأن هذا الدين سيظهر على الدين كله كما تبين الآية : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [الفتح: ٢٨] ولكن أكثر الناس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٩٩

(٢) نفسه ١٩٨ (٣) نفسه: ١٩٩

(٤) في ظلال القرآن : ٢٦/٣٣٣٠-٣٣٣١

كانوا يجهلون هذه الحقيقة حينما نزلت مبشرة المؤمنين في مكة ثم في المدنية، ولا يزالون يجهلونها إلى الآن من جهة قوتها على النفاذ في القلوب والعقول على الرغم من الصراع الإيديولوجي الذي يلاقيه أصحابها في العالم .

وقد بدأت الآن الدراسات التي تهتم بالعولمة في العالم تتساءل بخصوص المقاييس التي يمكن أن تقيَّم بها الأديان ومنها المقياس الأخلاقي في العالم، وأمانة ذلك الدين بأن يبقى أمينا لأصله وقانونه ولا يتناقض، وقبول الديانات السماوية الحقيقية الأخرى، ثم تتساءل: هل الديانة المسيحية هي حقا مسيحية؟ وتريد أن تطبقه أيضا على الديانات الأخرى بعيدا عن كل كبرياء من أجل شرح نقدي للمسألة [1].

إن الأكثرية كانت تجهل هذه الحقيقة التاريخية كما كانت تجهل حقيقة العلم اللدني الذي يؤثر الله به بعض عباده كما تبين قصة يوسف عليه السلام من خلال قوله تعالى ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٦٨] فالأكثرية لا تعلم أن الله يلهم أصفياءه[2] والمخلصين من عباده بالعلم اللدني كالذي ألهمه يعقوب عليه السلام بخصوص عودة ابنه يوسف، والذي ألهمه يوسف بالنسبة لتعبير الرؤى وما إلى ذلك.

ونتيجة لذلك فإن هذه الأكثرية لا تؤمن بالتفاوت القائم بين البشرية بخصوص الوحي، كما لا تعترف بزيف وعيها، لأنها لاتقدر على النقد الذاتي، مما يؤدي إلى كثرة الجاهلين الذين انتفى عليهم العلم بقضايا كثيرة مثل الحق والوحدانية ، وصدق وعد الله، وقدرته المطلقة، والدين القيم، وعالمية الرسالة الإسلامية، والبعث ، والفتنة العلمية، والعلم، وفتنة الخير والشر، ومن ثم كثرة أهل الكفر هذه الكثرة الغريبة التي سنبينها في خاتمة هذا البحث والتي بيناها في فصل الأكثرية والأقلية في الجانب العقدي، أما الآن فسنقف عند مسائل تتوقف على طبيعة ونوع المعرفة كتحديد المواقف من القضايا المختلفة.

---

(١) هاس كينغ : مشروع أخلاقي عالمي ص ٢٠٣ (٢) تفسير الجلالين ٣٢٠

المطلب الثاني: دور المعرفة في تحديد مواقف الولاء:

سنعرض جانبا معرفيا آخر مهمًّا هو الولاء، إذ أن الولاء يعد عنصرا هاما في العقيدة، بحيث يتوقف عليه الانتماء لأحد الطرفين المتناقضين في التصور الديني الصحيح، إذ يكون الولاء إما للرحمن وإما للشيطان، ويتبين ذلك من قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالمسألة في النهاية مسألة وقوع الإنسان في دائرة الظلمات، حيث الجهل والغموض، أو وقوعه في دائرة النور، حيث العلم والوضوح ليبصر الطريق المستقيم واضحا بينا يزيده هدى ونورا «فالمراد بالنور البرهان والحق وبالظلمات ظلمات الشبهات والشك، فالله يزيد الذين اهتدوا هدى لأن اتباعهم الإسلام تيسير لطرق اليقين، فهم يزدادون توغلا فيها يوما فيوما، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام فإن اختيارهم ذلك دل على ختم ضرب على عقولهم فلم يهتدوا، فهم يزدادون في الضلال يوما فيوما»(١).

وعلى هذا فإن الولاء إما أن يكون حقا، وإما أن يكون باطلا، وعلى الإنسان أن يجيد التمييز بين أهل الولاء حتى لا يهلك، والنجاح في التمييز يقوم على العلم الصحيح.

وسورة الأنفال تكشف عن دور العلم والمعرفة في تحديد وجهة أكثرية بني الإنسان في أمر الولاء والانتماء فيقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٤] إن هذه الآية تبين أن الأكثرية لم تستطع أن تميز بين ولائهم الولاء الحق، فيعتقد المشركون أنهم أولياء الله، ويعتقد المسيحيون أنهم أولياؤه، كما يعتقد اليهود أنهم الأقرب في الولاء، ولكن كل ذلك يقوم

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ٣٠

على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، إذ المسألة اعتقاد صحيح صادق واستقامة في التفكير والسلوك على الطريق المستقيم، ولذلك ينفي الله على الكفار جملة وَلَايَتَهُم للمسجد الحرام ﴿ **وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ ثم يثبت عن طريق الحصر ولاء المتقين له﴿ **إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ** ﴾ ويبين أن أكثر الناس لا يعلمون شيئا عن هذه الحقيقة الأساسية في الانتساب وما يترتب عليه من نتائج في الدنيا وفي الآخرة، إذ كيف تكون لهم ولاية على المسجد الحرام وهم يصدون الناس عنه، فلو كانت نفوسهم صافية وعقولهم ناضجة ما وقعوا في هذا التناقض بين الادعاء بأنهم أولياء المسجد الحرام ثم العمل على صد الناس عن الحج إليه، ومن كان كذلك فهو إذاً من أولياء الشيطان ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ ولا شك أن من يجعل الشيطان وليا سيخسر كثيرا ﴿ **وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١١٩] .

ثم إن المشكلة الأساسية المطروحة بخصوص الولاء هي مشكلة علمية معرفية ذات طابع غيبي خفي، إذ هناك في الحقيقة علم يؤدي إلى الطريق المستقيم فهو نور، أو جهل يؤدي إلى طرق ملتوية معوجة فهو ضلال، وقد بين ذلك الشيخ محمد المكي الناصري بقوله: «هاهنا كلمتان هما محور الآية الذي يدور عليه موضوعها من أولها إلى آخرها الكلمة الأولى، كلمة (ظلمات) التي وردت بصيغة الجمع، والكلمة الثانية كلمة (نور) التي جاءت بصيغة الإفراد فالنور الواحد الذي لايتجزأ ولا يتعدد هو المصباح الإلهي المنير الذي يضئ به قلوب أوليائه ممن تغلبت طاعة الله وتقواه وامتثال أمره ونهيه على كل هواه، بحيث يصبح التقوى ينير لهم كل شيء، على حد قوله تعالى ﴿ **نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ** ﴾ ومن كان الله له وليا كفاه كل شيء ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً** ﴾ [النساء: ٤٥] ، وبالظلمات المتعددة التي لا تنحصر أنواعها ولا أصنافها من ظلمة الكفر والشرك إلى ظلمة المعصية والفسق ومن ظلمة الظلم والعدوان إلى ظلمة الزور والبهتان، وهكذا إلى ما لا نهاية له، فهي السحب

السوداء والغيوم الكثيفة التي تغشى أبصار الكافرين والمنافقين وبصائرهم ممن أحاطت بهم خطيئتهم من كل جانب حتى أصبحوا وهم لا يهتدون سبيلا ولا يجدون بين أيديهم دليلا، وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ ...» [1].

إذن مسألة الولاء تقوم على وضوح الرؤية، أي أنها تقوم على العلم ومن انتفى عليه العلم الحقيقي صعب عليه الاهتداء إلى سبيل الولاء الصحيح، ويعبر عن ذلك آية أخرى من سورة العنكبوت هي: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤١]، قال ابن قيم الجوزية: «فإن قيل فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفي عنهم علم ذلك بقوله «لو كانوا يعلمون» فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه ﴿ **كالعنكبوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا** ﴾ فلو علموا ذلك لما فعلوا، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقوة فكان الأمر خلاف ما ظنوا» [2].

والجوانب التي تخفى على الناس بخصوص الولاء كثيرة منها ولاية اليهود والنصارى إذ نهى الله عنها بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١] فالآية هنا تنهى عن موالاة اليهود والنصارى، وتبين أن موالاتهم تؤدي إلى أمرين أحدهما أن من والاهم صار من جملتهم «لأنه قد خالف الله ورسوله كما خالفوا، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم أي من أصحابهم» [3] ثانيهما

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير ١ / ١٧٠-١٧١

(٢) ابن قيم الجوزية: الأمثال في القرآن - ١٩٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٢١٧

أنهم صاروا من الظالمين وترتب على ذلك أن الله لا يهديهم وكذلك بالنسبة للظالمين، فهم يشكلون دائرة مغلقة، ومن الواجب على المسلمين ألا يوالوهم، لأن الدخول في موكبهم سيصبغ المرء مما يستوجب الحذر من الانتساب إلى صفوفهم، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية : ١٩]، فالآية هنا تنهى عن التبعية وإعلان الولاء للذين لا يعلمون، «وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون ..... ، وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له»[١].

إن الذين لا يعلمون يتخذون ميزان تفكيرهم من الأهواء، لذلك يكون ولاءهم تبعا للأهواء فيظلمون ويناصر بعضهم بعضا على أساس هذا الولاء، لذلك ينبغي الحذر منهم، والعمل على اختيار أسلوب للولاء يرضي الله تعالى، ولن يكون إلا باتباع أهل شريعته ﴿ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾، وهذا الولاء فوق أنه يحقق الغلبة والنصر فإنه ولاؤهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾ [فصلت :٣١].

ومن كل ذلك يتبين دور العلم في تحقيق التبصرة التي تعد الأساس في الانتماء وإعلان الولاء، ومن انتفى عليه العلم بقي يتخبط في الظلمات ليس بخارج منها، لأنه يعلن ولاءه على غير هدى إلى الطاغوت بكل أشكاله.

والقرآن الكريم يضرب لنا مثالا حيا لمثل هؤلاء الذين لا يعلمون، لكن بنوع أدق وأوضح، إنه نموذج ممن أوتي علما ثم انسلخ منه وركن إلى هواه فوقع حيث الضياع والخسران : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**

---

(١) في ظلال القرآن : ٢٥ / ٣٢٢٩

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهذه قصة رجل آتاه الله علما فتجرد منه وآثر الجهل عليه فوقع في قبضة الشيطان، والآية واضحة في أنه لو عاد إلى العلم لخرج من قبضة الولاء للشيطان، ولكنه لم يفعل إذ أخلد إلى الغرائز واتبع هواه فضاع كما ضاع كل من كذب بآيات الله منذ البداية فلم يعلمها ليستثمرها في طريق الحق، قال الزمخشري في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ «فإن قلت كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قلت: المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها، وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها نفعناه بها»[1]، وقال ابن قيم الجوزية: «كان محفوظا محروسا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئا إلا على غرة..، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمائهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء»[2]، وقال في موضع آخر: «إنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من آثار الله ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه»[3].

وقال قطب: «إنه مثل لكل من علمه الله، فلم ينتفع بهذا العلم ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من نعمة الله ليصبح تابعا ذليلا للشيطان ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان»[4].

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٣٠ – ١٣١ دار المعرفة بيروت

(٢) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٣١٩

(٣) نفسه: ٢٢٣

(٤) في ظلال القرآن الكريم: ٩/ ١٣٩٨

وعلى الجملة فإن الولاء الذي تعلنه الأكثرية للطاغوت إنما هو ناجم بصورة أساسية عن انتفاء العلم على أهله، ولو علموا دقائق كل تلك الانتماءات وما تجره عليهم لعرفوا كيف يختارون الأنسب لهم في الدارين، وصدق الله إذ قال: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

ولكن الولاء الناجم عن الجهل وانتفاء العلم ليس إلا قطرة في بحر من الانزلاقات التي كانت نتيجة ذلك، ومنها الفتنة بالغرور العلمي نفسه، وهذا ما تبينه الآيات التالية : ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٤٩] . فالأكثرية لا تعلم أن تعاقب الخير والشر امتحان وابتلاء وفتنة، ولا تعلم أيضا أن غرور الإنسان بعلمه ينسب نتائج بعض أفعاله لنفسه فتنة، فأكثر الناس حين يخرجون من شر أصابهم ينسبون ذلك لعلمهم بحيل المساعي للإنقاذ، وحين يحصلون على خير ينسبونه لعلمهم بحيل السعي لجلب الخير، ولذلك عبر القرآن عن عقيدتهم في هذا الأمر بصيغة الحصر ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ وقد تكررت هذه الصيغة بشيء من التشديد على عنصر الفتنة في قصة قارون : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص: ٧٨] والمراد في الآيتين : « العلم بطرق الكسب ودفع الضر كمثل حيل النوتي في هول البحر » والغاية من عرضها أن « ذلك القول سبب فتنة أو سبب عن فتنة في نفوسهم »[١] والاستدراك بقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ معناه لا يعلم أكثر الناس ومنهم القائلون، أنهم فتنوا بما أوتوا من نعمة إذا كانوا مثل هؤلاء القائلين الزاعمين أن ما هم فيه من خير نتيجة مساعيهم وحيلهم »[٢] .

وتأتي خطورة أمر الجهل بالفتنة هنا من أن الإنسان إذا بلغ هذا المبلغ من نسبة نتائج أفعاله لعلمه وحيلته فقد أفسد عقيدته إذ معنى قوله ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ أنه اعتقد ذلك فجرى في أقواله، إذ القول على وفق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٦ .

(٢) نفسه .

الاعتقاد[1] لأن الألفاظ تترتب في النطق بحسب ترتيب المعاني في النفس كما يقول الجرجاني رحمه الله

وخلاصة القول: إن صيغة «أكثر الناس لا يعلمون» وردت في القرآن الكريم أزيد من ٢٨ مرة، أحيانا بذكر لفظ الناس، وأخرى بعودة الضمير «هم» على الناس، وقد فسر ذلك في كثير من الأحيان بأن المقصود بالناس هم كفار قريش[2]، والواقع أن المقصود هم البشرية كلها من لدن آدم إلى يومنا هذا كما سيتبين لنا ذلك.

وكان المفعول به في الصيغة محذوفا دائما إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٤] أي لا يعلمون توحيد الله بسبب إعراضهم عن الأسباب الموصلة إليه، أما ما دون ذلك من الآيات فقد وردت بغير ذكر المفعول به، والسبب في حذفه هو أنه معلوم من الجملة التي جاءت قبل صيغة نفي العلم على الأكثرية من جهة، ومن ناحية ثانية يكون الحذف إلى جانب ما يدل عليه لتعدل ما يدل عليه في الجملة السابقة، فيكون الأمر الذي تجهله الأكثرية متعددا، وقد مر بنا ذكر نماذج من ذلك.

وتكرار هذه الصيغة ـ ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أو الصيغة ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ لتعبر على سلوك الأكثرية ـ دليل على تعدد الموضوعات التي تخفى على الأكثرية فلا يعلمون حقيقتها، بل قد يكون لهم وعي مزيف يجعلهم يتوهمون أنهم يعرفون، فيتسبب ذلك في خسرانهم وضياعهم، ومن الموضوعات التي نفى القرآن علمها على الأكثرية من الناس جوانب أساسية في العقيدة كالوحدانية وسرها ووجوب اعتقادها، وصدق وعد الله، وقدرته المطلقة، وكونه غالبا على أمره، وتصرفه في الأرزاق، والولاء الحق والولاء الباطل، وحقيقة القرآن، والدين القيم، وعالمية الرسالة الإسلامية، والبعث وقيام الساعة، والفتنة

---

(١) نفسه ص ٣٥

(٢) الجلالين ٥٧١، ٦٢٦/والتحرير والتنوير ١٣/٣٦

العلمية، والعلم، وفتنة الخير والشر، وكون العذابين الدنيوي والأخروي من عند الله كما في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الطور : ٤٧] وإذا كانت الموضوعات التي نفى القرآن علمها على أكثر الناس كثيرة فإن طابعها الأساسي هو العقيدة، لأن بقية الأمور تابعة لها ومنبثقة عن طبيعتها، ولكن ما أسبابها.

● **المطلب الثالث: أسباب انتفاء العلم عن الأكثرية**

لانتفاء العلم عن هذه الأكثرية أسبابه الموضوعية، وهي من الوضوح بمكان، لأن الله سبحانه وتعالى لم يهمل البشرية في أي زمان أو أي مكان، بل تعهدها بالرسالات تلو الرسالات مدعمة بمعجزات شتى، ولكن أغلبية الخلق ركنوا إلى أهوائهم وتجاهلوا تلك المواعظ والوصايا والتوجيهات والإرشادات فانتفى عليهم العلم بما كسبت أيديهم، وبسبب استكبارهم وتعنتهم كما تبين ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الزمر : ٤٩ – ٥٠].

إذ تدل عبارة ﴿ **قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ على أن هذا ديدن أكثر الناس على مر التاريخ إنهم جميعا يدَّعون بما لم يعلموا، وقد بين الرسول ﷺ هذا السبب بوضوح في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾ [الفرقان: ٣٠]، هجروه فلم يسمعوه ولم يتدبروه، ولم يتخذوه دستورا لنظام حياتهم ليقودهم إلى السبيل المستقيم [١].

إن أكثر الناس قد اتخذوا الوحي بصفة عامة مهجورا، هجر المسيحيون الإنجيل وهم اليوم يمثلون الأكثرية، وقرروا على المستويات الرسمية اتخاذ اللائكية منهجا، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على تعميم نظرية التجهيل في المجتمعات

---

(١) في ظلال القرآن : ٢٥٦١

الإسلامية كلها بكل الوسائل المباشرة وغير المباشرة باسم الديمقراطية أحيانا وبالضغوط الاقتصادية أخرى، وهجر اليهود التوراة، واليوم يُهجر القرآن.

ثم هناك سبب آخر لا يقل خطرا عن هجران الوحي هو الولع بالعلم الظاهر بسبب فتنة المنهج التجريبي الذي يتخذ من الحس أساسا للتأثير في عقول البشرية وإغرائها بسبب طبيعة ميل الإنسان إلى الاقتناع بالمحسوس أكثر من اقتناعه بالمجرد، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الظاهرة وذمها بقوله: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

ثم إن الإنسان يجهل حدود طاقاته المعرفية، فيغتر بالمنهج الحسي والمنهج العقلي ويظن أنهما كافيين ليحيط بالمعرفة كلها، فيقع في أزمة معرفية خانقة، تجعله لا يعلم عن ما وراء الحس شيئا، لأن المنهج العقلي في حد ذاته يقوم على القياس والاستنباط فهو حسي في الأساس، وقد نبه الغزالي الى خطر تلك المحدودية المعرفية بقوله: «إن الإمكان في حق الآدمي والإمكان في حق الملك محدود إلى غاية في الكمال بالإضافة، كما أنه في حق البهيمة محدود إلى غاية النقصان، إنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه، ويفارق علمنا علم الحق تبارك وتعالى في شيئين: أحدهما انتفاء النهاية عنه، والآخر أن العلوم ليست في حقه بالقوة ـ والإمكان الذي ينظر خروجه بالوجود، بل هو بالوجود والحضور، فكل ممكن في حقه من الكمال فهو حاضر موجود»[1].

إن المعرفة مطلقه، منها ما يدركه الإنسان ويحدده بمنهجيه الحسي والعقلي، ومنها ما لا يمكن تحصيله إلا بالمنهج النقلي الذي يعد الوجي السبيل الوحيد إليه، قال تعالى ﴿ **فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾ [الجن: ٢٦] فإذا تجاهله الإنسان فقد جهل أدق المعارف التي هو في أمس الحاجة إليها، إذ أن العلوم الدينية لا بد من أصل وجودها في العالم كما يقول الغزالي[2]، فمن جهلها ضاع وخسر خسرانا مبينا، ومن عرفها ربح بقدر علمه ومعرفته حتى يبلغ

---

(١) الغزالي: جواهر القرآن الكريم ٤٥

(٢) جواهر القرآن ص ٤٤

درجة التقوى، لذلك حصر القرآن خشية الله في العلماء الحقيقيين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

ثم هناك سبب آخر غاية في الخفاء، والدقة يؤدي إلى أن الأكثرية لا تعلم كثيرا من الحقائق هو أن الإقبال على الوحي بقلوب مادية، لا يسعف الإنسان على أن يدرك الخطاب الروحي الذي يتطلب فقهه صفاء القلوب وطهارة النفوس، وهذا ما يجعل المؤمنين درجات أعلاها، مرتبة الأنبياء والمرسلين، وهو ما تعنيه الآية.

وقد لا حظنا أن جميع الآيات الأساسية في مشكلة انتفاء العلم على الأكثرية كانت آيات مكية، ولعل هذا ما جعل معظم المفسرين يعمدون إلى تفسير كلمة الناس بأنهم أهل مكة، أو أهل الشرك من العرب، ولكن في الواقع كانت الكلمة تؤصل للحياة البشرية كلها، وإنما تركزت مشكلة انتفاء المعرفة اليقينية في الآيات المكية لأنها تنظر لأجواء الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن مكانه أو زمانه؛ لأن الرسالة كانت عالمية والرسول أرسل للناس كافة.

وهكذا نجد أن الأكثرية قد انتفى عنها العلم لسبب تعطيل وسائل المعرفة بأسباب مختلفة، ومعظم المجهول من المعارف هو ما لا يمكن معرفته إلا بالوحي، وقد تجلى ذلك من خلال نصوص القرآن والسنة، والآن سننتقل إلى بيان كون الأكثرية قد انتفى عليها العلم لأنها عطلت وسيلته الأساسية مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٩٣] وقوله: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٧].

فما هي وسائل الإدراك المعرفي المعطلة؟ وما أسباب تعطيلها؟

* * *